فلسفة القرآن عن الكون والإنسان والحياة



في الوقت الذي يعتبر فيه القرآن معجزة اللغة العربية وبيانها، وكتاباً في التشريع والقانون، ومعلما ً للفضيلة والأخلاق — فإنّه يحمل إلى الناس أسس حضارة إنسانية شاملة، وذلك عن طريق المفهوم الذي يقدمه عن كل من الكون والإنسان والحياة ووجه التفاعل والتناسق بينها.

ولن يتسع المجال في هذا المقام لشرح التقرير الذي يضعه القرآن عن كلّ من هذه العناصر الثلاثة للحضارة في كَّل زمان ومكان، فإنّ من شأن ذلك أن يبعدنا عن الغرض الذي نحن بصدده؛ ولكننا نتناول من هذا البحث القدر الذي يفي بحاجتنا للتعرف إلى هذا الكتاب العظيم، ويكشف لنا أهم خصائصه ومحتوياته.

نظرة القرآن إلى الكون:

القرآن يبصِّر الإنسان بالكون الذي حوله على أنَّه جملة من المظاهر المخلوقة أبدعها ا□ عزّّ وجلَّ في انتظام تناسق لغرضين اثنين:

الأو ل: أن يتأمل الإنسان فيه ويتنبه إلى مدى دقته وتناسق نواحيه وأجزائه، ليتوصل من ذلك إلى الإيمان بالخالق جل جلاله، ثم إلى إدراك ألوهيته وربوبيته المطلقة، ثم إلى ادراك أنه عبد لهذا الإيمان بالخالق جل جلاله، ثم إلى إدراك ألوهيته وربوبيته المطلقة، ثم إلى ادراك أنه عبد لهذا الإله العظيم، وهو يقول في بيان هذا الأمر الأو ل: (إِن ّ في خَلَق السَّ مَاوَات وَالأُهْ عُ وَالْرُ ضَ وَالنَّهُ عَلَى النَّهُ اللَّهُ عَلَى النَّهُ النَّهُ عَلَى النَّهُ النَّهُ عَلَى النَّهُ عَلَى النَّهُ عَلَى النَّهُ عَلَى النَّهُ النَّهُ عَلَى النَّهُ عَلَى النَّاسُ مَاء وَ النَّهُ النَّهُ عَلَى النَّهُ النَّهُ النَّهُ عَلَى النَّهُ النَّهُ النَّهُ عَلَيْ النَّهُ ا

ويقول: (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيَاْلِ وَالنَّهَارِ لآَيَاتٍ

لأول ِي الألـ°بـَابِ * السّنَذينَ ينَذ°كُرُونَ اللسّنَه َ قَييَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ° وَينَتَفَكَّرَرُونَ فَي خَلَاْقِ السّنَمَاوَاتِ وَالأرْضِ رِبّنَنَا مَا خَلَقَّتَ هَذَا بِاَطْلِلاً سُبدْحاَننَكَ فَقِينَا عَذَابَ النّاَارِ) (آل عَمران/ 191-190).

الثاني: أن تكون هذه المظاهر الكونية كلها مسخرة لخدمة الإنسان ومصلحته وحاجاته فوق هذه الأرض، وأن يجد فيها — بمقدار ما يتسع له ادراكه وعلمه — دواء لمصائبه وحلاً لمشكلاته وفائدة لحياته. ومن ثم ّ فإن على الإنسان أن يُقبل على الكون تفهما ً له واستفادة منه. وفي ذلك يقول ا□ عز ّ وجل ّ في عبارة عامة شاملة: (ه ُو َ الـ ّذَي خ َلـ َق َ لـ َك ُم ْ م َا ف ِي الأر ْضِ ج َم ِيعا ً) (البقرة/ 29).

ثم يقول في بيان مفصل: (الله َ اله َ اله َ حَلَقَ السه َ مَاء َ وَالأَرْضَ وَا َنْزَلَ مَنَ السه َ مَاء َ فَا خُرَجَ بِه ِ مِنَ الثه َ مَرَات ِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخّ َ رَلَكُمُ الْهُ لَكُمُ السه َ مَاء َ فَي الْبُه َ حَرْرِ بِأَ مُرْرِه ِ وَسَخّ َ رَلَكُمُ الأَنْهاَ الآ َ عُمْ وَسَخّ َ رَلَكُمُ الأَنْهار َ * وَسَخّ َ رَلَكُمُ الله َ مَسْ وَ النّه َ عَارَ) (إبراهيم/ 33-32). وقال: وَ النّه َ مَرَ لَكُمْ مَا فَي السّ َ مَاوَ ال وَ مَا في الله َ مَا في الله َ مَا وَ النّه َ الله َ مَا في الله َ مَا وَي ذَلَكُ وَ الله َ لَكُمْ فَإِنّ القرآن يحذّ ر الإنسان من أن ينظر لآيات ٍ لَيْقَوْم ٍ يَتَهُ فَكَ ّ رَبُونَ) (الجاثية / 13). ومن ثمّ فإن القرآن يحذّ ر الإنسان من أن ينظر إلى شيء من مظاهر الكون وفوائده المختلفة على انه مما يجب الصدود عنه وعدم إشغال الذهن أو الحياة ، رهبة أو تزهدا ً أو تعبدا ً ، ويقول: (قُلْ مَنْ حَرَّ مَ وَرَينَ عَلَى اللّه َ اللّه َ اللّه َ اللّه َ اللّه َ الله َ الله يَ الله َ الله الله الله لا يعب المدود و والم الله عن أن رُبَعَ الله و الله و الله و الرّب و قول (الأعراف/ 32).

وإذا ً، فجملة ما يقرره القرآن عن الكون أنسّه خادم أمين مسخر للإنسان، يستفيد منه الإنسان بمقدار ما يتأمل فيه ويستبطن ظواهره. وكلمة "التسخير" من أقوى التعابير في الدلالة على الخدمة المستقرة الدائبة؛ وعلى أن ّ للإنسان ان يستفيد منه ويستخدمه لصالحه في المعاش الدنيوي والمعاد الأخروي.

نظرة القرآن إلى الإنسان:

الإنسان في القرآن مخلوق يحمل أخطر مميزات وصفات يحملها مخلوق على الاطلاق. هذه المميزات هي: جملة الصفات الإنسانية المركبة فيه، من العقل وما يتفرع عنه من العلم والإدراك والقدرة على تحليل الأشياء وسبر أغوارها، والأنانية وما يتفرع عنها من النزوع إلى الأثرة والمنافسة والتملك وما يتفرع عنها من حب العظمة والنزوع إلى السيطرة والكبرياء ونظرا ً لما لهذه الصفات من الخطورة والأهمية ونظرا ً لكونها أسلحة ذات حدين: إن استعمل أحدهما جاء بالتنظيم العظيم للكون والخير الوفير للإنسان، وان استعمل الآخر أو استعملا معا ً جاء بالشر الوبيل والفوضى الهائلة للحياة – نظرا ً لذلك أطلق القرآن على هذه الصفات اسم الأمانة فقال: (إ نسّاً عَرَضْنَا الأمانَة عَلَى السسّمَاوَات أو ات والأرْضِ و الدُّه بَالِي فَا و وَحَمَلَه الإنسان، والذي اقتضاه حمل هذه الصفات كلها، أو الإنسان أو الذي اقتضاه حمل هذه الصفات كلها، أو حمل هذه الصفات كلها، أو حمل هذه الكون.

والإنسان في القرآن، بعد هذا موصوف بصفتين: واحدة منهما لبيان أصله وحقيقته، كي لا يطغيه شيء من صفاته التي تحدثنا عنها، ولا يتجاوز بها حدود عبوديته □ عز ّ وجل ّ، والثانية لبيان مركزه من هذا الكون كله ومستواه بين الخليقة أجمع.

ففي صدد بيان الصفة الأولى، يقول ا□ عز ّ وجل ّ: (فَلَا ْيَنَاطُرِ الإِناْسَانُ مَمِّ َ خُلَرِقَ * خُلَرِقَ مَنْ مَاءٍ دَافَقِ * يَخْرُجُ مَنْ بَيْنِ الصِّلُاْبِ وَالتَّرَائَبِ) (الطارق/ 7-5)، ويقول: (أَوَلَمَ ْ يَرَ الإِنَّسَانُ أَنَّا خَلَقَاْنَاهُ مَنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبْرِينٌ) (يس/ 77)، ويقول: (وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أَمَّاهِاَتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئاً ً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارِ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) (النحل/ 78).

وفي صدد بيان الصفة الثانية يقول: (وَلَقَدهْ كَرِّمَهْنَا بَنِي آَدَمَ وَحَمَلَهْنَاهُمْ فِي الهْبَرِّ وَالهْبَحْرِ وَرَزَقَهْنَاهُمْ مَنَ الطّّيَيِّبَاتِ وَفَصَّلَهْنَاهُمْ عَلَى كَثَيِرٍ مِمَّنَ خَلَقَعْنَا تَفْضَيِلا) (الإسراء/ 70).

والإنسان في القرآن، أخيراً، عبدا[، خلق ليكون مظهرااً لألوهية ا[عز ّ وجل ّ. وما صفة الخلافة فيه وتكريمه على سائر المخلوقات وتسخير الكون له إلا وسيلة لأن يحقق عبوديته [تعالى بالكسب والممارسة والاختيار كما خلقه عبداً له بالجبر والاضطرار. وفي بيان ذلك يقول: (و َم َا خَلَق ْتُ الـ ْج ِن ّ َ وَ الإنسُ إِلا لـي َع ْبُدُون ِ * م َا أُر ِيدُ م َن ْ م ِن ْ ر ِز ْق ٍ و َ م َا أُر ِيدُ أَ نَ ْ يُ ط ْع ِم ُون ِ) (الذاريات/ 57-56).

نظرة القرآن إلى الحياة:

القرآن يتحدث عن الحياة الدنيا من جانبين:

الجانب الأوّل من حيث قيمتها الحقيقية، وعلاقتها بما وراءها، ومركزها من قصة الوجود بأسره والحياة كلها.

الجانب الثاني من حيث ما يجب أن تكون عليه حالة الإنسان تجاهها، ومدى ما ينبغي أن يستفيده منها.

فالحياة الدنيا — من حيث قيمتها الحقيقية — حياة فانية، وظل زائل ومع ْبر إلى الحياة الباقية الأخرى. والقرآن يظل يلح على بيان هذه الحقيقة وتجسيدها وتنبيه الناس إليها. فيقول مثلاً: (اء ْلاَ مُوا أَنسَّ مَا الهُ حَييَاة ُ الدسِّ نَييَا ليَع بِ ُ وَلاَ هَوْ وَزِينيَة ٌ وَ تَفَاخُر ٌ بِيدْيَهُ وَ وَرَينيَة ٌ وَ تَفَاخُر ٌ بِيدْيَهُ وَ وَتَكَاثُر ٌ فِي الأَمْوَ ال وَ الأَوْلاد ِ كَمَ شَل َ غَيهْ وَ أَ عَ ْجَبَ الدَّكُ فُسَّارَ نَبَاتُه ُ ثُمّّ وَ تَكَا ثُرُ اللهُ وَ الأَوْلاد ِ كَمَ شَل عَيهُ فَي ْ (الحديد/ 20)، ويقول: (و َمَا الهُ حَياة ُ اللهِ اللهُ وَ اللهِ اللهُ الله

أما الحياة الدنيا — من حيث ما ينبغي أن تكون عليه علاقة الإنسان بها — فهي وسيلة إلى تقويم معاشه ومعاده، وسبب لابد من مباشرته لإصلاح أمره وإسعاد نفسه وبني جنسه. ولذلك فالقرآن يأمر الإنسان بالاستفادة من الحياة، على أن لا تكون هم ّه الأو ل، وعلى أن يتخذ منها وسيلة للغاية الكبرى التي خلق من أجلها، وسببا ً يضمن لنفسه به السعادة الآخرة. فهو يقول في هذا الصدد (و َابْتَغِ فِيم َا آتاك َ الله َ الد ّاله َ الآخرة و لا ت َنْس َ نَص ِيب َكَ م ِنَ الد ّ ُنْي َا) (القصص 77)، ويقول محذرا ً من معارضة الفطرة الإنسانية بالانقطاع عن متعة الحياة الدنيا وطيباتها (ياً أ ي ّه َا الله َ الله َ مُنَا أ َ ي ّ ه َا الله َ م َن آم َنْوا لا ت حُر ِ همُوا ط َي بِات ما أ حَل ّ َ الله َ الله َ لا يكم و و لا ت ع ْت دُوا إ ِن ّ الله َ م َن آم َنْوا لا ت حُر همُوا ط َي بِات ما أ حَل ّ الله َ م لا ي حُر ب أ الله م ع ق م و ك له و ك ك له و ك ك م و الله و

وهكذا، يأمر القرآن الإنسان بالاقبال على الحياة للتمتع بطيباتها والاستفادة من نعيمها، على أن يقف قبل ذلك على حقيقة هويتها، ويصحو من الاغترار بمظهرها؛ وذلك كي يكون هو المسيطر عليها والمسير لها إلى ما تقتضيه مصالحه وسعادته، ولكي لا تكون هي المسيطرة عليه أو المسكرة له فيغرق في نعيمها وينسى أي معنى للوجود من ورائها.

فإذا تأملت في هذا التقويم القرآني، لكل من الكون والإنسان والحياة، أدركت أن محور المخلوقات كلها في الرتبة والألوهية إنما هو الإنسان، وأنّ الغاية التي خلق من أجلها أن يكون مظهرا ً لحكمة ا□ تعالى وعظمته وعدالته في الأرض بما يلتزمه من منهج العبودية له تعالى، وأن محور الوجود كله إنما هو الدار الآخرة فالدنيا بكل ما فيها والحياة بكل صورها وأشكالها مقدمة بين يدي تلك الحياة الأبدية الأخرى، تلك الحياة التي لا تكاد تجد صحيفة من القرآن خالية من التذكير بها والتحذير من جحودها.

فتلك هي أسس الحضارة الإنسانية التي جاء بها القرآن، والتي أرادها للإنسانية دستوراً ومنهجاً في هذه الحياة.

المصدر: كتاب من روائع القرآن